أحمد عبد الرحيم السايح

المعرفة في الإسلام

بين الأصالة والمعاصرة

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

دار الطباعة المحمدية ٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد :

إن الرغبة الصادقة تدفع بنا إلى أن نلقى نظرة صادقة على مجد الأمة الإسلامية فى ماضيها لننطلق إلى المعاصرة من أصالة موجهة .

والمسلمون كما برعوا فى علوم الدين وما يتصل بالقرآن الكريم والسنة واللغة العربية ، فقد تعمقوا كثيراً فى علوم الحياة والحضارة الإنسانية .

والقرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد ، يوقظ القلوب ، ويصلح العيوب ، ويشرح الصدور . وهو أعظم مرشد إلى الفلاح ، وهاد إلى النجاح . .

من تدبره فاز بسعادة الدنيا والآخرة ، ومن درس الحقائق العلمية والتاريخية التى أشار إليها علم أن هذه الحقائق هى سر الإعجاز .

وإذا كانت الأمة الإسلامية تخطو على طريق مجد الأسلاف ، فهذا هو التاريخ الإسلامى ، يضىء الطريق ويبين فى وضوح قيمة الأسلوب العلمى فى الحياة الحضارية .

والمنهج العلمى هو الطريق الذى يصل به الإنسان إلى غايته التى يقصدها وبمعنى آخر هو « مجموعة من القواعد العلمية المنتظمة من أجل الوصول إلى الحقيقة » .

وإيمانا برسالة العلم والمعرفة ، أقبل المسلمون على العلم ينشدونه فى مظانه وإيمانا من المسلمين بأن المعرفة والعلم ، حلقات متصل بعضها ببعض ، ومؤثر بعضها فى بعض إيمانا بهذا : عكف المسلمون على ثمرات عقول القدماء من فلاسفة الاغريق والرومان وغيرهما ، يدرسونها كأحسن ما يكون الدرس ويمحصونها ، ويأخذون عنها ، ويزيدون عليها ، ويؤصلون أصولها .

وقد طبع المسلمون على حرية الفكر ، واستقلال الإرادة ، ولهذا كانت لهم حضاره عالمية ، لن ينسى التاريخ دورها فى بناء المجتمع الإنسانى، أو قدرتها فى تحويل مجرى الإنسانية ، ولن تنسى الإنسانية ، دور المسلمين فى بناء الحضارة بأصالة وعمق .

والمسلمون التزموا بالمنهج العلمى فى كل ما من شأنه أن يساعد الإنسانية ويأخذ بيدها إلى مراقى الرقى والتقدم . ولهذا كانت للمسلمين حضارة تتسم بالأصالة والتوجيه . . .

والمسلمون فى أشد الحاجة إلى الإطلاع على حضارتهم الإسلامية التى ملأت الدنيا — ولأول مرة فى تاريخ الإنسانيـــة — بالعلم والنور والإنسانية ، وذلك ليكون دافعاً إلى المتطلعين إلى مستقبل مشرق ، والتواقين إلى المجد الحضارى للإسلام ، وان المسلمين فى الحضارة الإسلامية ما يزيدهم إيماناً بالأصالة ، وقدرة على الازدهار ، والمساهمة فى توطيد دعائم الإخاء الإنسانى ؟

أحمد عبد الرحيم السايح

القاهرة — مدينة نصر — ص . ب ١٢

العلم والدين

العلم والدين : كلمتان من أكثر الكلمات تداولا وشيوعاً واستعمالا فى عالم الإنسانية قديماً وحديثاً .. ولكل كلمة من الكلمتين مدلولها ومفهومها ، ووقعها ..

فالدين هو الأمور الاعتقادية التى جاءت من طريق الوحى الإلهى . وهو ضالة الأرواح ، وأنشودة العواطف ، وبلسم جراح الحياة ، ونسيم الطمأنينة والأمن والأمان ، ومهب نفحات الحق ، وهو واحد لاتعدد فيه ، بعث الله به الأنبياء وأرسل الرسل .

قال تعالى : «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ».

وجاء فى دائرة معارف القرن العشرين حرف (دال) : أن الدين هو الطاعة والانقياد واسم لجميع ما يعبد به الله . . .

والعلم لغة بمعنى المعرفة ، ولا حاجة بنا إلى أن نستشهد بكل ما ورد فى المعاجم . فنى لسان العرب لابن منظور مثلا : علمت الشيء أعلمه علماً : عرفته . وعلم بالشيء : شعر به . وعلمت بالشيء بمعنى عرفته وخبرته . والعرفان : العلم . وعرفه الأمر علمه إياه . والتعريف : الإعلام . ومثل هذا فى سائر المعاجم اللغوية . .

والمعنى المشارك فيه هو مفهوم لفظ الإدراك . ويمكن أن نقول : إدراك النفس على الوجه العام الشامل حسياً كان أو ذهنياً .

فالإحساس والشعور وإدراك الأشياء وتصورها وفهم معانى الألفاظ بمفرداتها ومركباتها ومؤلفاتها ، وما يعقل وما يتخيل وما يتوهم ، كل ذلك يصح لغة ، أولعله يصح أن يؤدى حصوله فى النفس لفظ العلم ولفظ المعرفة على حد سواء . .

والعلم ضربان : إدراك ذات الشيء . . والثانى : الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له . أو نفى شيء هو منفى عنه . . والعلم نظرى وعملى . فالنظرى ما إذا علم فقد كمل ، نحو العلم بموجودات العالم . والعلم العملى ما لا يتم إلا بأن يعمل به كالعلم بالعبادات والمعاملات . .

وترى الدراسات العلمية: أن العلم هو مجموع المعارف الإنسانية المؤيدة بالدلائل الحسية . والعلم لا يعترف بمسألة إلا إذا قبلها العقل وأيدها الحس وقبلت الخضوع لأسلوبه من الاختبار والمراجعة والتمحيص والغربلة والتحقيق .

ويطلق العلم أيضاً : على ما يضاد الجهل على الإطلاق . وقد يقصد بالعلم تلك المعرفة الرياضية والطبيعية التى قامت على تجارب دقيقة والتى وصل عن طريقها الإنسان إلى كشف قوة البخار والكهرباء والذرة والفضاء إلى ما شاء الله .

وإذا كانت هذه التعاريف تعطى فى مضمونها المعنى الواضح لكلمتى الدين والعلم . فهل يجتمعان أو لا يجتمعان ؟

فى نظر الماديين والطبيعيين : أن العلم والدين نقيضان لا يجتمعان وضدان لا يلتقيان . فمفهوم العلم عندهم لا يعدو حدود الطبيعة ولا يجتاز أسوارها .

يقول العالم الطبيعى الملحد « هكسلى »: يطلب العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس مع الاستعانة بجميع ما عرف من أنواع الآلات . .

ويرى العالم المادى « بلفور »: أن العلم يتوقف فى تحصيله والتثبت منه على المقاييس ، فكل ما لا يقبل القياس من الأشياء فهو خارج أو يكاد يكون خارجاً عن حدود الطبيعة . .

ويقول « وندل » : العلم سواء استعان بالآلات أم لم يستعن عماده ، ما يلاحظه الإنسان ويحسه من الكائنات ، وما تهديه إليه المعامل الكيمائية والتجاريب والآلات التى تمكنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكامنها العميقة . .

تلك هى معرفة علماء المادة والطبيعة والشيوعية . وما ورد وراء هذا القدر الضئيل يريد العلماء الماديون أن لا يصلوا إليه ، ولا يجهدوا أنفسهم فى البحث فيه . .

فما هى الطبيعة ومن الذى أوجدها ؟

ومن الذى يمسك الأرض والسموات أن تزولا ؟ ذلك وغيره مما يتصل بالعقيدة والدين غير وارد فى تفكير هؤلاء الباحثين لعوامل شتى جعلتهم كالحيوانات .

والحقيقة التى لا يستساغ إنكارها : أن العلم والدين يلتقيان فى إسعاد البشرية ورفاهية الإنسانية ، والوصول بالناس إلى ما قدر من الخير والسلام والسعادة والنجاح . .

غاية العلم الكشف عن الحقيقة وخدمة الإنسان فى الحياة . وغاية الدين إسعاد الإنسانية فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة . . فالدين طريق لمعرفة الحقية ودعوة إلى العلم النافع المفيد . والعلم أداة لمعرفة الحقائق ودعوة إلى الإيمان بالله . . إذن وبدون مجانبة للحق يمكن أن نقول : إن الدين يعطى المعرفة عن طريق الوحى الإلهى . على حين ينشد العلم المعرفة عن طريق البحث والملاحظة والاختبار والتجربة والنظر . . والعلم يصف ويحلل . والدين يأمر ويبين ما ينبغى أن يكون . وقد يستطيع العلم أن يفيدنا ما هو الإنسان ؟ وكيف أصبح على ما هو عليه ، ولكن الدين وحده هو الذى يخبرنا لم يعيش الإنسان ؟ قال تعالى :

« أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون»(١) .

وقال تعالى :

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »(٢) .

والدين وحده هو الذى يخبرنا أيضاً إلى أى غاية يجب أن توجه حياة الإنسان. ونخلص من هذا إلى أن التطور العلمى والتقدم الفكرى لا يتعارضان مع الدين الإسلامى فى شىء أبداً . . حقيقة أن موضوع العلم وطرق البحث وأساليب المعرفة تختلف عنها فى الدين ، ومع هذا لا يناقض أحدهما الآخر . .

والإسلام ينظم الحياة من جميع وجوهها ، فهو نظام عالمى يوجه الإنسان فى الحياة ويساعده على أن يحصل لنفسه وللجماعات الإنسانية أسمى درجة من الكمال الإنسانى فى الروح والخلق والمادة والعقل والقيم والتقدم . وكل تكييف لعمل الإنسان فى ظل الإسلام حسب تعاليم الإسلام يعتبر عبادة مشروعة . . لهذا كله فسح الإسلام مجال العلم للعقل الإنسانى وتعدى به أسوار الطبيعة وتغلل به فى مباحث الكون والحياة . ولم يقف به عند حدود الماديات الطبيعية بل تعداها إلى كل شىء فى الحياة يفيد الإنسان ويعود عليه بالسعادة . والإسلام لا ينسجم مع نتائج البحث العلمى والعقلى فحسب . بل جعل متابعة البحوث وطلبها واجبا دينياً يؤجر عليه الإنسان المسلم . وكلمة العلم فى القاموس الإسلامى كلمة مطلقة لم تخصص بمادة معينة من مواد العلم . قال تعالى :

---

(١) سورة المؤمنون . الآية رقم ١١٥ .

(٢) سورة الملك . الآيتان الأولى والثانية .

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(١) .

وقال تعالى :

« وما يعقلها إلا العالمون »(٢) .

وقال تعالى :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »(٣) .

إلى غير ذلك من الآيات التى وردت فيها كلمة العلم مطلقة دون تقييد بعلوم مخصوص أو منظور مخصوص .. ويرشد هذا الاطلاق فى مضمونه إلى أن العلم فى نظر الإسلام ليس خاصا بعلم الفقه والأصول والأحكام . وإنما يشمل كل إدراك يفيد الإنسان فى القيام بمهمته فى الحياة . فإدراك الصناعة وآلاتها وما يصلح به النبات . وما تستنبت به الأرض ، وإدراك ما يصلح الحيوان ويزيد فى الثروة الحيوانية ، وإدراك الموارد الزراعية والحيوانية والصناعية . والثروات المعدنية . وإدراك الأمراض وعللها وكيفية الوقاية منها وعلاجها ، وإدراك وسائل القوة والدفاع . كل ذلك علم . ولقد جاء الايماء بهذا كله واضحاً فى القرآن الكريم . وبه كان العلم بمعناه الشامل : العنصر الأول من عناصر الحياة فى الإسلام . فالعلم فى القرآن الكريم يشمل كل أنواع المعرفة التى تتصل بكل ما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم ، وفى معاشهم ومعادهم ، وفى أجسادهم وأرواحهم .. وهذا أمر طبيعى باعتبار الإسلام نظاماً كاملا خالداً ، ينظم شئون الدين والدنيا ، ويقيم الحياة الصحيحة .

---

(١) سورة الزمر . الآية رقم ١٩

(٢) سورة العنكبوت . الآية رقم ٤٣ .

(٣) سورة المجادلة . الآية رقم ١١ .

والوسائل التى إتخذها الإسلام لنشر العلم تعتمد على خطوات أهمها :

أولا : التأمل والنظر والدراسة والتدبر فى ملكوت الأرض والسموات وما خلق الله من كائنات : قال تعالى :

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنياها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج »(١) .

إلى غير ذلك من الآيات التى تدعو إلى النظر ، واستعمال الفكر والعقل .

ثانياً : البحث العلمى بالإنتشار فى أقطار الأرض لدراسة الجبال والأنهار والصحارى والبحار ، ومعرفة النبات والحيوان ، ووسائل الإستفادة من كل هذه الأشياء والكائنات .

قال تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . . . »(٢) .

فالله سبحانه وتعالى لم يخلق لنا هذه الكائنات عبثاً ، وإنما سخرها لنا لننتفع بها بعد دراسة أساليب هذا الإنتفاع ، على أن نستخدم أيسر السبل وأسهل الوسائل لهذا الإنتفاع .

---

(١) سورة ق الآيات ٦ إلى ١١ .

(٢) سورة ابراهيم الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

ثالثا : الإستفادة مما تركه السابقون من معارف وعلوم وآثار ، ليحصروها ثم يضيفوا إليها ما يهديهم إليه البحث والاستنباط من حقائق ونظريات . لأن الحضارات والمعارف الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات ، يؤثر سابقها فى لاحقها ، ويتأثر حاضرها بماضيها ، والحضارات الإنسانية ليست ملكا لأمة بعينها ، ولا هى وقف على جماعة من الناس ، لأنها صرح هائل أسهمت فيه كل أمة بنصيب . . وهناك كثير من الآيات فى السير والنظر والإتعاظ والتنبيه .

رابعا : الرحلة فى طلب العلم . والرحلة فى طلب العلم من اشرف الرحلات على الاطلاق . ولهذا شد المسلمون الأولون الرحال . وقطعوا الفيافى ، وجابوا البحار فى طلب العلم . فنهضوا بالثقافة ، واسسوا ارقى حضارة .

المعرفة بين الفلسفة والإسلام

المعرفة : إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره . . والمعرفة أخص من العلم ، ويقال فلان يعرف الله . ولا يقال يعلم الله ، متعديا إلى مفعول واحد . . .

وعرفه يعرفه معرفة وعرفانا ، فهو عارف . والعلم والمعرفة ، يفرق بينهما من جهة اللفظ ، ومن جهة المعنى . .

أما اللفظ : فنعل المعرفة يقع على مفعول واحد . قال تعالى : «فعرفهم وهم له منكرون»(١) . . وفعل العلم يقتضى مفعولين كقوله تعالى : «فإن علمتموهن مؤمنات»(٢) . . وإذا وقع على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة كقوله تعالى : «وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم»(٣) .

وأما الفرق من جهة المعنى فمن وجوه :

أحدها : أن المعرفة تتعلق بذات الشيء ، والعلم يتعلق بأحوال الشيء — فتقول : عرفت ربك وعلمته صالحا ، ولذلك جاء الأمر فى القرآن الكريم بالعلم دون المعرفة كقوله تعالى: «فاعلم أنه لا إله إلا الله»(٤) فالمعرفة : حضور صورة الشيء ، والعلم حضور أحوال الشيء وصفاته ، والمعرفة نسبة التصور ، والعلم نسبة التصديق . .

ثانيهما : أن المعرفة فى الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه ،

---

(١) سورة يوسف الآية رقم ٥٨ .
(٢) سورة الممتحنة الآية رقم ١٠ .
(٣) سورة الأنفال الآية رقم ٦٠ .
(٤) سورة محمد الآية رقم ١٩ .

فإذا أدركه قيل عرفه ، أو تكون لما وصف له بصفات قامت فى نفسه . فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل : عرفه ، قال تعالى : وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفكهم وهم له منكرون»(١) .

فالمعرفة نسبة الذكر فى النفس ، وهو حضور ماكان غائبا عن المذاكر . ولهذا كان ضدها الإنكار ، وضد العلم الجهل . قال تعالى : « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها»(٢) .

ويقال عرف الحق فأقر به ، وعرفه فأنكره . .

ثالثها : أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره ، والعلم يفيد تمييز مايوصف به عن غيره . .

رابعها : أنك إذا قلت : علمت محمدا لم تفد المخاطب شيئا ، لأنه ينتظر أن تخبره على أى حال علمته . فإذاقلت : كريما أو شجاعا ، حصلت له الفائدة . وإذا قلت عرفت محمدا ، استفاد المخاطب أنك أثبته وميزته عن غيره ، ولم يبق أن ينتظر شيئا آخر . . .

خامسها : أن المعرفة علم يعين الشىء مفصلا عما سواه ، بخلاف العلم فإنه يتعلق بالشىء مجملا . والفرق بين العلم والمعرفة عند المحققين ، أن المعرفة هى العلم الذى يقوم العالم بموجبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحدة(٣) .

---

(١) سورة يوسف الآية رقم ٥٨ .

(٢) سورة النحل الآية رقم ٨٣ .

(٣) راجع بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادى. الجزء الرابع ص ٧٧ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة . ومقالنا « المعرفة فى ظل الإسلام » فى مجلة قافلة الزيت ع ١١ ص٢ مجلد ٢٠ السعودية ١٢٩٢ هـ

ولكن إذا كانت المعرفة لها كل هذا ، فهل هى فطرية ؟ أم مكتسبة ؟ أم مزيج بينهما ؟ . .

فى هذا تحصل للدارسين والباحثين ثلاثة آراء ، ولكل رأى من الأدلة والبراهين ما ينهض مدعما له :

أولا : يقرر كثير من رجال الفكر الفلسفى أن المعرفة الإنسانية جميعها مكتسبة ، وأن طريق اكتسابها الحواس .

ويرى الفلاسفة : أننا ندرك الأشياء عن طريق الحواس . فالشخص الذى يولد أصم لا يمكن أن يعرف الأصوات وهى موضوع السمع .

وكذلك الشخص الذى يولد أعمى لا يمكن أن يعرف الألوان ، فنحن ندرك الأشياء الخارجية عن طريق الحواس : البصر أو السمع أو اللمس أو الشم .

وبمعنى آخر : أن الأجسام الخارجية هى مجموعة من الاحساسات . .

أو بمعنى ثالث : نحن لا ندرك الأشياء الخارجية ، وإنما ندرك أنفسنا ، لأننا لا يمكن أن نعرف الشىء الخارجى كهذا الكتاب إلا عن طريق هذه النوافذ التى نطل منها على العالم الخارجى .

وعن طريق هذه الاحساسات التى تتجمع وتنتظم بعد نفاذها من هذه النوافذ ـ الحواس ـ نعرف الأشياء . . فأنا لا أعرف الكتاب ، وإنما أعرف الاحساسات الموجودة فى عقلى عن هذا الكتاب . .

معنى ذلك : أن هناك عقلا يتلقى هذه الاحساسات ، وأن العقل كالصفحة البيضاء يتلقى الاحساسات فتكون المعرفة . .

ثانيا : وقالت فئة أخرى : أن المعرفة فطرية بمعنى أن الإنسان يولد ونفسه

عالمه بكل شيء ، لأن النفس قبل اتصالها بالبدن كانت تعيش فى عالم المثل فاطلعت على كل شيء وعرفت كل شيء ، ولما اتصلت بالجسد نسيت . وبمعنى آخر أن الإنسان يولد ونفسه قد فطرت على معرفة الأشياء . فإذا عرفت النفس شيئا ، أو أدرك الإنسان شيئا ، فإنه فى الواقع لا يدرك شيئا جديدا ، ولا يكتسب معرفة جديدة ، ولكنه يتذكر ما كان يعرفه فى عالم المثل . وهذا تفسير قول (أفلاطون) : «العلم تذكر ، والجهل نسيان» ولعل بعض الآراء فى التصوف تنحو هذا النحو ، وتزعم إمكان المعرفة بغير الحواس(١) :

ثالثا : ويذهب آخرون إلى أن العقل البشرى بطبيعته يحتوى على جزء من المعرفة الفطرية ، يضاف إليها جزء آخر مكتسب . .

واختلف العلماء فى هذا الجزء الفطرى . فقال بعضهم : أن المعرفة البديهية ، هى المعرفة الفطرية مثل : الكل أعظم من الجزء . ويذهب «كانت» الفيلسوف الألمانى إلى أن العقل البشرى حين يكتسب المعرفة المحسوسة للأشياء الخارجية ، يضيف إليها شيئا من جوهره وطبيعته ، ويصوغ المعرفة للمحسوسات الخارجية فى قالبين : القالب الأول : المكان . والقالب الثانى : الزمان .

وكأن الفيلسوف «كانت» يريد أن يقول : ان المكان والزمان لا يتعلقان — بالأشياء الخارجية فحسب ، بل هما إنسانيان ، فمن طبيعة العقل وجود هاتين الصورتين وبخاصة صورة المكان وصورة الزمان ، اللتان لا نستطيع أن ندرك الأشياء المحسوسة إلا داخلة فيهما .

---

(١) معانى الفلسفة للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ص ٨٨ الطبعة الأولى. القاهرة .

والرأى الذى يذهب إليه علماء الطبيعة ، وخصوصا الذين يأخذون بنظرية «اينشتاين» وهى أحدث النظريات فى تفسير الكون يتضمن أن المعرفة الموجودة فى عقولنا لا تنفصل عن جملة الحضارة ، أو الثقافة السائدة فى العصر الذى يعيش فيه صاحب المعرفة . واننا نرى أن أدقاء الباحثين قد أجمعوا على أن الثقافة البشرية سلسلة متماسكة الحلقات ، تؤثر سوابقها فى لواحقها ، على صورة قد تكون واضحة ، وقد تكون غامضة . وجوهر المعرفة موجود وجودا محققا ، ولكن نعت المعرفة من قلة أو كثرة أو نسبية أو إطلاق . أو فطرية أو اكتسابية . هو الذى اختلف فيه الفلاسفة منذ أقدم عصور الفلسفة الإنسانية . . فهى تارة نسبية ، وأخرى مطلقة ، وثالثة فطرية كلها ، ورابعة مكتسبة كلها ترتكن على التجارب .

وكذلك تعيين القوة العارفة ، وتحديد مدى اختصاصها ، فمرة هى الحواس وحدها كما عند «هيراقليطس» وأخرى هى الحواس مع العقل كما يرى «أرسطو» وثالثة هى البصيرة كما يرى «أفلاطون» ورابعة هى العقل وحده كما يرى «ديكارت» .

ويعنينا أن نعرف أن المعارف الإنسانية تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : المعارف العامية : وهى مجموعة المشاعر والاحساسات المادية المتحصلة للإنسان ، بواسطة بعض أجزاء بدنه وهى تمتاز بأنها بسيطة ساذجة خالية من الدقة والتعمق . . ويصفها الفيلسوف «هيراقليطس» بأنها : أشبه بماء يسيل بين شطئان غير محدودة سيرا غير محدود المصير . ونحن مدينون بهذه المعارف للحواس التى تستعين فى توصلها إلينا بالزمان والمكان .

لكن ليس هذا هو كل شىء ، بل أن الحواس تعانى فى نقل تلك المعارف عمليتين لا بد منهما لحصولها لدينا وهما :

أولا : ارتسام تلك الأشياء المادية المراد نقلها . .

ثانيا : نقل تلك الرسوم إلى مكانها الطبيعى من النفس البشرية . فالمعرفة العامية لها بالضرورة درجتان :

الدرجة الأولى : المعرفة الإحساسية البحتة ، وهى لا علاقة لها بذكريات الماضى ، ولا بأخبار المستقبل .

الدرجة الثانية : هى ما تشترك النفس فى عمليته . وهو منظم ثابت ، يتناول ماضى الحياة ، وحاضرها ، ومستقبلها . .

القسم الثانى : المعرفة العلمية : وهى التى يعول عليها فى الحياة الإنسانية ويعتمد عليها الإنسان فى الوصل إلى ماقدر له . .

وأظهر الفروق بين المعرفة العامية . والمعرفة العلمية هى :

— أن المعرفة العامية مقصورة على النواحى المادية والاجتماعية فى الحياة ، بينما المعرفة الفلسفية تتناول فوق هذا تدبر أسرار الكون والوجود . .

— أن المعرفة العامية موجودة لدى جميع أفراد بنى الإنسان ، على حين أن المعرفة الفلسفية مقصورة على أصحاب العقول المفكرة . .

— أن المعرفة العامية فطرية توجد لدى كل من يتوفر فيه القدر المحقق للإنسانية من العقل ، ولكن المعرفة الفلسفية مكتسبة بالمران والتطبيق الدقيق .

— أن المعرفة العامية معرضة للتأثر بالغريزة وبالعاطفة ، فى حين

أن المعرفة الفلسفية خليقة بأن تكون بعيدة من أثر هذين الباعثين(١) .

فالمعرفة تشمل محيطات واسعة ، تبدأ بالمعرفة العامية التى يشترك فيها جميع أفراد النوع البشرى ، ثم تصعد إلى درجة التجارب الحسية على أيدى الطبيعيين أو الكيميائيين . ثم تستمر فى صعودها إلى درجة النظر العقلى عند الرياضيين والفلاسفة ، لكى تنتهى عند مرتبة التجارب التنسكية . .

ومن هذا يتبين أن المعرفة تتطلب جهودا ضخمة ، للإحاطة الشاملة التى تضمن القدرة على منح كل غصن من أغصان دوحتها المترامية الأطراف الطابع الذى يميزه عن غيره . .

وإذا أردنا أن نتبين المعرفة فى الإسلام ، فيجدر أن نشير إلى نظريات المعرفة فى أكثر الآراء الفلسفية ، مع ابعاد الآراء المتطرفة التى ابتدعها المنحرفون وسنكتفى بالآراء التى تتمتع بالسيادة الفكرية ، وتعتمد على أدلة ، فوق مالها من رجال ومؤيدين ..

الرأى التجريبى :

ورجال هذا الرأى يقولون : ان المعارف مهما بلغت من التجريد والاستقلال عن الأمور الحسية ، فلا يمكن القول بأنها أمور مركزة فى الفطرة ، بل هى كغيرها يكتسبها الإنسان عن طريق الملاحظة والتجربة، ويفسر التجريبيون نشأة العلوم الرياضية ، بأن الإنسان قد اتجه منذ القدم إلى الظواهر الحسية ، فقاس الإبعاد والحصى والسطوح والأشكال . واستخدم بعض الوسائل الحسية كالأصابع والحصى فى التعبير عن الأعداد،

---

(١) المعرفة عند مفكرى المسلمين للدكتور محمد غلاب ص ٢١ ، ٢٢ طبع الدار المصرية للنشر .

ثم استطاع آخر الأمر أن يجرد المعانى الرياضية من ملابساتها الحسية ، فاهتدى إلى الخط المستقيم والخطوط المتوازية والمربع والدائرة وغير ذلك من الأشكال الهندسية(١) .

وطريق المعرفة فى المذهب التجريبى هو : الخبرة الحسية ، وإذا أغلقت الحواس أبوابها انعدمت المعرفة ، فلن تنشأ فى العقل أفكار ، إلا إذا سبقتها مؤثرات حسية(٢) .

الرأى العقلى : ورجال هذا الرأى : يرون أن العقل وحده كاف فى الوصول إلى المعارف ، وإدراك مفاهيمها . وليس الإنسان بحاجة إلى أن يرجع إلى الطبيعة لكى توحى إليه بفكرة «الكم المتصل» أو «الكم المنفصل» أو ترشده إلى التعاريف الرياضية . . بل أن هذه المعانى توجد فى العقل بصفة فطرية وليست مكتسبه بالتجربة ، والأمور الظاهرية هى عوامل ثانوية تحفز العقل على الابتكار والإبداع والإيجاد .

وطريق المعرفة فى الرأى العقلى لا يرتكز على الحواس وحدها لأنها تخطىء وتصيب ، ولهذا لا تصلح أساسا للمعرفة . وإنما أساس المعرفة هو العقل الذى يدرك إدراكا مباشرا والعقل الذى يشك ويفهم ويدرك ويثبت ويريد ويشعر كما يقرر ديكارت صاحب الرأى العقلى فى الفلسفة الحديثة .

---

(١) محاضرات فى مناهج البحث للشيخ محمد خليل هراس ص ١٣ دار الطباعة المحمدية .

(٢) المحاضرات العامة للموسم الثقافى الثانى الأزهر ص ٩٠ مطبعة الأزهر ١٩٦٠ .

والعقليون لا يرفضون ما تجيء به الحواس ، ولكنهم لا يعتمدون عليها اعتمادا كليا ، ولا يقطعون فى الأخذ بها . .

الرأى النقدى :

ويطلق الباحثون على رجال هذا الرأى «الموفقين» ويرى هؤلاء : أنه لا تعارض بين المذهب التجريبى والرأى العقلى بل أنه من الممكن الجمع بينهما ، وأن كلا من العقليين والتجريبيين قد أدرك وجها الحقيقة ، وغفل عن وجهها الآخر فتعصب لرأيه ، وغلا فى الانتصار له ، والحقيقة إنما تتم بالعقل والتجربة ، فكلاهما متمم للآخر . فليست المعانى فطرية فى النفس كما يزعم العقليون ، وليس العقل وحده كافيا فى كشف المعارف . كما أن الملاحظات والتجارب لا يمكن أن تكون هى المنبع الوحيد للمعرفة أو هى العمدة فى إدراكها . فالرأى النقدى يجمع بين الرأى التجريبى والرأى العقلى . وقد رأى (كانت) هذا الرأى مقررا أن المعرفة لا تتم إلا بالخبرة الحسية والمبادىء العقلية معا ، ولا شك عند كانت فى أن جانبا منها يأتى من الخارج ، وهو جانب الخبرة الحسية التى تتثبت من الأشياء وحينما يتلق العقل ذلك ، ينظمه فى حدوده . ومن ثم يكون جزء من المعرفة معتمدا فى مضمونه على خبرة الحواس ، وفى قالبه على فطرة العقل فى طريقة الإدراك . وهكذا يكون كل جزء من المعرفة حسيا وعقليا فى أن واحد معا(١) .

الرأى الصوفى :

إذا كانت وسيلة المعرفة عند التجريبيين هى الحواس ، ووسيلتها عند العقليين هى العقل ، ووسيلتها عند النقديين هى الحواس والعقل معا . فإن

---

(١) راجع مقالنا فى مجلة (قافلة الزيت) عدد ذو العقدة ١٣٩٢ ص٣ الظهران السعودية وكتاب المعرفة فى ظل الإسلام ص٢٩ .

وسيلة المعرفة عند الصوفيين والمسكيين تختلف عن الآراء والمذاهب السابقة لأن هؤلاء يرون أن العلم اليقيني إنما يجيء عن طريق الحدس. والحدس: هو الإدراك العقلي المباشر الذي يدرك به العقل الحقائق إدراكا، وتذعن له النفس إذعانا، وتوقن به إيقانا لاسبيل إلى دفعه(١).

الحدس إذن كشف عقلي بلغ من الظهور والوضوح أن زال معه كل شك، وبلغ من السرعة والبساطة أن يتم دفعه لاعلى التعاقب. والحدس عند الصوفيين ينهض على صفاء القلب، وبمجاهدة النفس حتى تصل إلى مرتبة من الصفاء تتيح لها من المعارف ما لاتصل إليه الحواس والعقول معا(٢).

الرأي العملي - البراجماتزم:

وهذا يخالف الرأي الصوفي كما لا يرضى أن يخضع لأي رأي أو مذهب. وفلسفة البراجماتزم، فلسفة تقدم العمل ثم تستخلص منه المعرفة ومن هنا أجاز الرأي جميع الظواهر(٣).

والبراجماتية: اصطلاح فلسفي يطلق على المذهب القائل بأن الحقيقة في صميم التجربة الإنسانية، وأن المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما هو في كونها مفيدة، وأن الفكر في طبيعته ذاتي أي له غاية، ومعنى هذا أن التاريخ البرجماتي معناه: الكشف بالإستناد إلى معرفة الماضي وكلمة براجماتية كلمة قديمة ومستعملة بمعان مختلفة إلا أنها تعرف الآن مقترنة باسم الفيلسوف الأمريكي «تشارلس ساندرز بيرس» رافع أسس المذهب البراجماتي(٤) والمعرفة في حقيقتها ليست مجرد العلم بالواقع كما هو، بل هي أداة السلوك العملي الذي يأتي بالنفع(٥).

(١) محاضرات في الفلسفة للدكتور سليمان دنيا «مذكرات».
(٢) المحاضرات العامة للموسم الثقافي الثاني بالأزهر ص٩٠ سنة ١٩٦٠م
(٣) فصول في الفلسفة. للفيلسوف جود ترجمة ماهر كامل ص٢٥٨.
(٤) دائرة معارف مجلة الفيصل ص١٥٣ عدد رقم ٢٠ السعودية.
(٥) مجلة الهادي. المجلد الأول العدد الأول ص٢٩ قم إيران.

وتلك أهم مذاهب المعرفة التى اهتدى اليها علماء وفلاسفة الغرب، وبعض الصوفيين والتنسكيين . وقد تفرعت عن هذه المذاهب نظريات فكرية عديدة وراح كل فريق يغالى فى التاييد لرأيه ومذهبه حتى اصبح لايرى الحقيقة الا فيه . .

والنظريات والآوراء التى ذهب اليها التجريبيون والعقليون والنقديون والمتنسكون والبراجماتيون وغيرهم ، هى من وضع ناس فكروا ، وبحثوا، واصلوا الاصول وقعدوا القواعد فوصلوا إلى ما هداهم إليه البحث والفكر.

أما الاسلام فغير هذا كله ، لأن الاسلام من عند الله، الذى خلق الانسان وعلمه البيان ، وماكان من عند الله كان اتم واكمل .

والباحث يرى ان الاسلام وثب بالمسلمين وثبة هائلة :

وهذه الوثبة كانت على أثر اشعاع القرآن الكريم فى جنبات الدنيا والانسانية فأنارها بعد ظلمة ، وهدى الانسانية بعد حيرة ، ونظمها بعد اضطراب ، وفتق اذهان ابنائها بعد ارتتاق ، وازال الاصفاد والقيود التى كانت تقف حجر عثرة امام الفكر . .

وكان من ذلك أن نبه إلى وجوب النظر فى الكون العام ، وفى النفس الانسانية ، وفى الاسباب والمسببات، فكان بهذا مصباحا انارالدنيا ،واضاء افق الانسانية ، واشرق بالمعرفة الصحيحة . .

والباحث المنصف يرى أن الاسلام فى وثبته الهائلة وضع اسس المعرفة التى تهدى الانسان إلى الخير وتحيط بجميع الجوانب، وتستوعب الطرق كلها، وتجعل منها كلا متكاملا غير قابل للتمزق والشتات . .

وتقوم المعرفة فى الاسلام لا على أساس نظرية تحتاج الا دراسة وتأمل ، وانما على أساس التعادل بين الكم والكيف ، وبين المادة والروح ، وبين

الغاية والسبب ، وبين الدنيا والآخرة . فلا افراط ولا تفريط ، طبقاً لقوله تعالى : « وان هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »[١] .

لقد ربط الاسلام بين الحواس المرهفة . وبين العقل الباحث المنظم ، او الوجدان النقى الملهم . فالاسلام يدعو الى استعمال الحواس ، وبخاصة حاستى السمع والبصر . قال تعالى . « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والارض مددناها والقينا فيها رواسى ، وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »[٢] .

وقال تعالى : « اولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء »[٣] .

وقال تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب »[٤] .

الى غير ذلك من الآيات القرآنية التى تدعو الى التدبر والتبصر والتفكر ، والتأمل والنظر ، واستعمال الملكات العقلية . قال تعالى : « ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا »[٥] .

والحواس وحدها قد لا تغنى فى أمور كثيرة ، لهذا نستعين بالبصيرة

---

(١) سورة الانعام . الآية رقم ١٥٣ .
(٢) سورة ق الآية رقم ٦ .
(٣) سورة الاعراف الآية رقم ٢١ .
(٤) سورة الأنعام : الآية رقم ١٩٠ .
(٥) سورة الاسراء الآية رقم ٣٦ .

الملهمة والرأى الراجح النفاذ « فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »(١) .

اما طريق الحدس الوجدانى الذى يصل اليه الانسان بمجاهدة النفس وتقوى الله ، فقد اشار اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « يايها الذين امنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا »(٢) .

وفى قوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)(٣) .

وفى قوله تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا)(٤) :

فالاسلام الحنيف قد جمع بين جميع المواهب والملكات ، سواء منها الحسية أو المعنوية ، المنطقية والروحية ، ليصل الانسان الى الكمال المنشود فى ظلال تعاليم القرآن التى جاءت لترشد الانسان الى ما فيه السمو بالفكر والعقل . .

وقد سجل القرآن الكريم طرقا شتى لكشف الحقيقة ليتخذ كل فرد من بنى الانسان الطريق الذى يلتئم مع مستواه ، ويتسق مع عقليته . والطرق التى جاء بها الاسلام تتطابق مع مراتب الانسانية ودرجاتها ، وتتجاوب مع حاجاتها ورغباتها . .

---

(١) سورة الحج . الآية رقم ٤٦ .
(٢) سورة الانفال . الآية رقم ٢٩ .
(٣) سورة الطلاق الآية رقم ٢ .
(٤) سورة البقرة الآية رقم ٢٥٩ .

الطريق الأول : طريق النظر والتأمل فى السموات والأرض : ولهذ الطريق مرحلتان : ارضية وسماوية والمرحلة الأرضية أخفض المراحل واشدها بدائية وألصقها بالارض ، وهى تخاطب عامة الناس بما بين ايديهم من مرئيات ، ثم توجههم الى استنباط ما هو بعيد عنهم لعلهم يهتدون .

قال تعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت »[1] .

والمرحلة السماوية استطاعت أن تظفر بحظ من تطور الانسانية ورقى العقلية . وهذا دليل على ان الانسانية قد ارتقت بعض الشيء واصبحت جديرة بالنظر الى السماء ثم النظر فى السماء . قال الله تعالى : « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »[2] :

فالاية الكريمة : « افلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت » . . دلينة بالرحمة فائضة بالاشفاق على اولئك الناس ، ومن ثم فهى تتواضع فتنزل الى مستوى الناس الفكرى ، وتجاربهم حتى يتمكنوا من المعرفة . .

أما الاية الكريمة : « افلم ينظروا الى السماء فوقهم . . . » فتفيد ان فريقا من الناس قد ارتقى وصعد بعض الشيء ، واصبح جديرا بالنظر الى السماء اولا ، ثم بالنظر فيها ثانيا ، ثم بقياس ما لا يرى على ما يرى ، واستنباط نتائج محققة سامية من مقدمات بسيطة ميسورة . .

---

(١) سورة الغاشية . الاية رقم ١٧ :
(٢) سورة ق الايتان ٦ ، ٧ .

والاسلام لم يشأ أن يقفز بهولاء قفزة قد تكون فوق مستواهم العقلى لهذا وقف بهؤلاء ريثما يعدهم للدرجة التى تليها ، وهى درجة النظر فى ابداع السموات وسير الكواكب فى افلاكها . . وفى هذا يقول الله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لايات لقوم يعقلون »(١) .

وقال تعالى : « او لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم فباى حديث بعده يؤمنون »(٢) :

وقال تعالى : « ومن اياته ان تقوم السماء والأرض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض إذا انتم تخرجون »(٣) .

الطريق الثانى : الاسباب والمسببات . . والاسباب والمسببات طريق من طريق المعرفة فى الاسلام وهو طريق لفريق من البشر ، لان كثيرا من الناس لايقنع الا بافاعيل الاسباب فى مسبباتها ،ولا يرضيه سوى التأمل فى نشوء المسببات عن اسبابها.. وهذا الطريق يصل ما بين الارادة والوجدان ويضع الخطوط المثالية للسلوك . وهذا الطريق يمكن الاسباب والمسببات من الصعود الى ما وراء الطبيعة ليصل الانسان الى معرفة الخالق وعظمته وعدله وحسابه وجزائه . .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ١٦٤ .
(٢) سورة الاعراف . الاية رقم ١٨٥ .
(٣) سورة الروم الاية رقم ٢٥ .

وكيفية استعمال هذا الطريق يقول عنها أحد قادة الفكر :

« هى أن المستدل ينظر أولا إلى ما حوله من المرئيات ، ثم يحاول أن يتبين أسبابها المباشرة أى المؤثرة فيها بلا أية واسطة ، فاذا تبينها أسرع إلى الإغفاء عن سببيتها ، واعتبرها مسببات لما قبلها ، ثم بادر إلى البحث عن التى قبلها فاذا اهتدى إليها سلك بإزائها نفس مسلكه بإزاء ما سلف ، حتى ينتهى إلى الحق الذى هو الغاية المنشودة ، والنهاية المقصودة »(١) .

وهذا شيء من آيات السببية والمسببية الدالة على وجود المبدع ، أو الدالة على البعث وإمكانه . قال تعالى : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج »(٢) .

وقال تعالى : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآيات لقوم يذكرون »(٣) .

وقال تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وأن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ، وأرسلنا الرياح لواقح

---

(١) المعرفه فى ظل الإسلام ص ٤٦

(٢) سورة ق : الآية رقم ١١

(٣) سورة النحل الآيات ١٩ — ١٢

فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين . وانا لنحن نحى ونميت ونحن الوارثون »(١) .

وقال تعالى : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير »(٢) .

وعن طريق الأسباب والمسببات وصل المفكرون إلى أسرار الكون وخفايا الوجود ومعرفة الخالق جل وعلا .

الطريق الثالث : طريق المعقولات المحضة ، ويمكن العثور على ذلك فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، والمعقولات المحضة لا يدركها إلا علية الصفوة من المفكرين ، والتى يغلق الباحث عندها أعين المادة والذهن المعتمد على الحواس ، ويفتح أعين القلب النقى بواسطة نوره إلى ما وراء حجب المرئيات فيتفكر فى ملكوت المعقولات والذى لا يقاس به ملك المحسوسات لأن النسبة بينهما منعدمة بالطبع (٣) .

الطريق الرابع : طريق البديهيات العقلية : والبديهيات قضايا عامة شديدة العموم يضمها العقل ويسلم بصدقها ، وتبدو كأنها مركوزة فى العقل ، فهى ضرورية لا يمكن إقامة البرهان على صدقها مثل :

(أ) الكمان المساويان لثالث متساويان .

(ب) إذا اضيفت كميات متساوية إلى أخرى متساوية كانت النتائج متساوية .

---

(١) سورة الحجر الآيات ١٩ — ٢٤
(٢) سورة فصلت ، الآية رقم ٢٩
(٣) المعرفة فى الإسلام . ص ٨٣

والبديهيات تستخدم كمقدمات لاستنباط النتائج التي تترتب عليها ، وقد اختلف الباحثون في نشأة البديهيات . فذهب العقليون إلى أن البديهات قواعد عامة وضرورية فلا يستطيع العقل إنكارها والإتناقض . .

وذهب التجريبيون إلى أنها من أصل حسى وإنها مكتسبة بالملاحظة والتجربة على كل حال ، فهذا الطريق يعد فى علم الفكر المنطقى المحض اسمى الطرق وأقربها إلى القمة ، وأدناها إلى أوج الكمال الإنسانى . وهذا الطريق منبثق من داخل النفس ، مؤسس على الحق الواضح الثابت ، وهو الفكر المحتوى فى آية : «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» . . ويجمل هذا الفكر أن كلا من المؤمن والجاحد ، والمرتاب ، يصدر فيما يذهب إليه عن فكر وهناك طرق أخرى كثيرة لا تقل شأنا عما سبق مثل الآيات الكونية فى الإنسان ، وفى الكائنات الحية ، وفى النبات ، وفى العالم العلوى ، وفى الأرض وما عليها . . ومن كل هذا يتبين أن طرق المعرفة فى الإسلام تلائم الإنسانية كلها حسب درجاتها فى الكمال الفكرى . . وإن القرآن الكريم خاطب الناس على قدر ثقافتهم وفكرهم ، ليصل بهم إلى ذروة ما قدر لكل من الفهم والصواب . .

الفكر والعقل

من أوضح سمات القرآن الكريم التي لفتت نظر الباحثين في القرآن ، من المسلمين وغير المسلمين . . هي الإشادة بالعقل ، وتوجيه النظر إلى استخدامه فيما يفيد وينفع . . فدعا القرآن بطريق مباشر وغير مباشر ، إلى تقدير العقل والرجوع إليه ، فيما اختص به من تفكير . .

ويحرص القرآن على تأكيد هذا المعنى ، حتى أنه ليكرر هذه الدعوة بشكل يلفت النظر ، ويثير الاهتمام . وقد وردت مادة «عقل» بصيغة المضارع : يعقلون ، تعقلون ، يعقل ، نعقل» في خمسين آية من آيات القرآن الكريم . .

والعقل في اللغة العربية ضد الحمق . وسمي العقل عقلا ، لأنه يعقل صاحبه عما لا يحسن ، وهو القوة المتهيئة لقبول العلم ...

ويشير القرآن إلى العقل بمعانيه المختلفة مستخدماً لذلك كل الألفاظ التي تدل عليه ، أو تشير إليه من قريب أو بعيد . . من التفكر ، والنظر ، والتدبر ، والرأي ، والحكمة ، والتذكر ، والعلم ، والفقه ، والرشد ، والبصر . . إلى غير ذلك من الألفاظ التي تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها وظلالها ، مما يعتبر إيحاءات قوية بدور العقل ، وأهميته بالنسبة للإنسان . والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية ، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة ، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله . . أو يلام فيها المنكر على

إهمال عقله وقبول الحجر عليه ، ولا يأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة . بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها . . وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف ، والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته .

فلا ينحصر خطاب العقل فى العقل الوازع . . ولا فى العقل المدرك . . ولا فى العقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح .

بل يعم الخطاب فى الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنسانى من خاصة أو وظيفة .

والعقل فى مدلول لفظه العام : ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى أو المنع عن المحظور والمنكر . ومن هنا كان اشتقاقه من مادة « عقل » التى يؤخذ منها العقال ، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارد فى اللغات الإنسانية الكبرى التى يتكلم بها مئات الملايين من البشر .

ومن خصائص العقل أنه ملكة الإدراك التى يناط بها الفهم والتصور وهى على كونها لازمة لإدراك الوازع الأخلاقى ، وإدراك أسبابه وعواقبه ، تستقل أحيانا بإدراك الأمور فيما ليس له بالأوامر والنواهى . أو بالحسنات والسيئات . .

ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ، ويبنى عليها نتائجه وأحكامه وهذه الخصائص فى جملتها تجمعها ملكة « الحكم » وتتصل بها ملكة الحكمة . . وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح ، وما ينبغى أن يطلبه ، وما ينبغى له أن يأباه :

ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى «الرشد» وهو مقابل لتمام التكوين فى العقل الرشيد . . ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع ، والعقل المدرك . والعقل الحكيم . . لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف ، وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد ، حيث لا نقص ولا اختلال . .

وفريضة التفكير فى القرآن الكريم ، تشمل العقـــل الإنسانى بكل مااحتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها . فهو يخاطب العقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الحكيم ، والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضا مقتضبا . بل يذكره مقصوداً مفصلا على نحو لانظير له فى كتاب من كتب الأديان »(١) .

لأن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل بكل ملكاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون، قبل أن يصبح العقل درساً يتقصاه الدارسون كنهاً وعملا ، وأثراً فى داخله وفيما خرج عنه ، وفيما يصدر منه وما يؤول إليه . .

العقل وازع لصاحبه عماه يأباه له التكليف . .

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء ، وفى بواطن الأمور ...

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال . .

العقل رؤية وتدبير . .

العقل بصيرة تنفذ وراء الابصار . .

العقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون وتحفظ وتعطى وتبدىء وتعيد . .

---

(١) التفكير فريضة إسلامية . عباس العقاد . بتصرف . .

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف، وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور .

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟ .

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء(١)

والعقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يعصم الضمير ، ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر ويتدبر ويحسن الإدكار والرواية .

وإنه هو العقل الذى يقابله الجمود والعنت والضلال . وليس بالعقل الذى قصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون ..فإن الجنون يسقط التكليف فى جميع الأديان والشرائع ، وفى كل عرف وسنة . ولكن الجمود والعنت والضلال غير مسقط للتكليف فى الإسلام ، وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه ، فانها لا تدفع الملامة ، ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير(٢) .

ولما كان العقل فى الإسلام له هذه العناية الفائقة من التقدير ، فقد اتخذ له الإسلام منهجاً فريداً ، فى تحريره ليظل العقل عاقلا ، والفكر راشداً .. وهذا المنهج الإسلامى يقوم على دعائم أساسية من شأنها حراسة العقل حتى لا يضل فى المتاهات الفلسفية . .

---

(١) الانسان فى القرآن . عباس العقاد . ص٢٤ الكتاب العربى بيروت
(٢) التفكير فريضة إسلامية . عباس العقاد . .

ومن شأنها أيضا ترشيد الفكر ، حتى يعمل فى ميادين الخير ، وما يفيد المجتمع الإسلامى والانسانى علما وحضارة وازدهارا .

وأول دعائم المنهج الإسلامى فى تحرير العقل والفكر .. هو تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى ، وسيطرة التبعية العمياء ، وتربيته تربية إسلامية ، تقوم على حرية الفكر ، واستقلال الإرادة . ليكمل بذلك العقل ، ويستقيم التفكير ، وتكمل الشخصية الإنسانية .. لأن كمال العقل ، واستقامة التفكير ، أساس فى صحة العقيدة وكمال التدين ، ومعرفة الحق الذى يجب أن يتبع ، ومعرفة الباطل الذى يجب أن يجتنب ..

وقد عنى الاسلام ببناء تحرير الانسان من أغلال الحجر العقلى عناية كبرى ، فجعل البرهان أساس الايمان الصحيح .. وبين أن كل اعتقـــاد أو عمل لا يقوم على دلائل الحق فهو مردود ، وأنذر الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا كتاب ، قال تعالى « ومن الناس من يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفة ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » . .

والدعامة الثانية فى المنهج الإسلامى .. هى تحرير الانسان من أصفاد الجهل وظلمته .. لأن الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر ، ويطفىء نور القلوب ، ويعمى البصائر ، ويميت عناصر الحياة والقوة فى الافراد والجماعات والأمم ، ويفسد على الناس مناهج الاستقامة ، والسلوك الحسن .. والجهل هو الذى يجعل النفوس مستعدة لقبول الزيف والبـــدع والأهواء والخرافات والأساطير .. قال تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن الله حكما لقوم يوقنون » .

والدعامة الثالثة فى المنهج الاسلامى .. تحرير الانسان من طاعة الأهواء ، والانقياد الأعمى لمغرياتها .. لأن طاعة الأهواء من أقوى

عوامل انحراف الانسان فى سلوكه والتوائه فى نظره وتفكيره ، وهؤلاء الذين يطيعون الأهواء لا يستقيم لهم رأى ، ولا تعتدل لديهم موازين ، ولا يخضعون لحق ليس فى جانبهم ..

ولهذا عنى الاسلام بتحذير الناس من اتباع الهوى ، ونص عليهم ضلالهم وانحرافهم ، فقال تعالى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون أهوائهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين » .

وعن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

قال الحافظ الامام ابن رجب : إن الانسان لا يكون مؤمنا كل الايمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهى وغيرها فيحب ما أمر به ، ويكره ما نهى عنه .

وإذا كان من شأن هذا المنهج الاسلامى أن يطهر العقل ، ويقوم الفكر ، ويسير به فى الطريق المستقيم .. فإن الاسلام اتبع ذلك بمبادىء قيمة ، من شأنها أن تصل بالناس إلى طريق الحق والهدى والخير والسلام .

أولا : إن الناس فى الفهم والتفكير وإدراك حقائق الأشياء لن يكونوا متماثلين ، ولا متشابهين .. لأن الناس على درجات مختلفة ، ومراتب متباينة .. فهناك فريق من الناس قد لا تهيء له حالاته والظروف المحيطة إلا شذرات من المعرفة . . وثمة فريق آخر لم تعده وراثته إلا للسطحى من الأشياء . . وكم من الناس من قصرته البيئة على القشور من الحقائق . . وكم من الناس من حصرته التربية فى دائرة ضيقة من المرئيات . .

وهناك من سجنته الخرافات والأساطير .. ومن الناس من جرفه تيار المادة ،فلم يعد يرى الأشياء إلا بمنظار مادى .. لهذا طالب الاسلام مختلف المستويات الانسانية بالنظر والتأمل والتفكير فى ملكوت السموات والأرض .

قال تعالى : « أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف سطحت » .

وقال تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددنا وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

وهناك كثير من الآيات التى تدعو إلى التفكر والنظر فى السموات والأرض ، وما خلق الله فيهما .. ليصل الانسان إلى الايمان بالله ، فيرتقى إلى السمو والكمال .

والانسان بدون ايمان بالله لا قيمة له ولا اعتبار .. ولهـــذا نرى المجتمعات الشيوعية والاشتراكية وغيرها من المجتمعات المادية والالحادية تساق كما تساق السائمة ، ومن الذى يسوقها ؟ قطيع من الذئاب الحمراء .. وقد حرمت هذه المجتمعات من التفكير والنظر ؟ ولم يعد لأفرادها أى شأن . .

ثانيا : لم يكتف الاسلام بتوجيه الناس إلى النظر والتفكر والتدبر . بل استنهض العقول ووجه الافهام ، وأيقظ الحواس ، ونبه المشاعر ، وذلك بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وقوله تعالى : « وإن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وقوله تعالى : « وإن فى ذلك لآيات لأولى النهى » .

وقوله تعالى : « وإن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » .

وقوله تعالى : « ويبين آياته للناس لعلهم يتفكرون » .

وقوله تعالى : « إنما يتذكر أولوا الألباب » .

ثالثا : بشر الإسلام الذين يستمعون القول فينظرون إليه نظر البصير، ويتبعون منه ما يدل على الحق ، ويهدى إلى الرشد .. كما قال تعالى : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » . .

وهكذا نرى أن الإسلام قد عمل على تطهير النفوس من الأغراض الخفية ، والأهواء الدفينة .. لأن ذلك من أكبر العوامل فى إعتدال النظر واستقامة التفكير . .

ومن هنا كانت حملة الإسلام شديدة على الذين لا يستعملون عقولهم ، وما وهب الله لهم من قدرات ذهنية .. ضاربين فى بيداء الضلال ، منقادين وراء سراب كل البدع والأهواء من المذاهب الوضعية والأفكار المستوردة .

والإسلام يريد من الناس ، كل الناس أن يعتمدوا اليقين .. لا الظن . لأن الظن لا يغنى شيئا ..

وإذا كان الإسلام يدعو إلى تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى وسيطرة التبعية العمياء — كما عرفنا فى الدعامة الأولى من دعائم المنهج الإسلامى فى تحرير العقل — فان ذلك يعنى أن التقليد الذى ذمه

الإسلام . هو التقليد الذى لا يميز بين الخير والشر , كتقليد شباب الأمة الإسلامية ، لكل ما هب ودب من (موضات) العصر المستوردة .

أما تقليد أهل الحق من الأئمة والدعاة الذين استمدوا علومهم من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .. فهو من قبيل القدوة الواعية ..

وحرية الفكر التى دعا إليها الاسلام هى الحرية التى تطلق العقول والأفهام من أغلال الحجر العقلى ، والكبت الفكرى، وتجلى معالم الحقائق، وتجعل قيادة التوجيه . قيادة بناء وإصلاح وإرشاد . تستمد مقوماتها من هدى الاسلام ، وتعاليمه وتوجيهاته .

وطريق الفكر قد حدده الاسلام بالقرآن فيما يتعلق بالقضايا الأساسية والاعتقادية فى حياة الناس .. أما ما سوى ذلك فإنه يمكن أن يؤخذ عن طريق الحواس والتجربة والعقل الذى يزن كل معطيات الحواس .. ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا الطريق بقوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وهذه الآية تنهى عن اتباع ما لم يقم به علم يستند إلى حجة سمعية ، أو رؤية بصرية ، أو براهين عقلية ، وهى طريق الاستدلال التى تنحصر فى العقليات والسمعيات والمحسوسات .

لهذا كله أقبل المسلمون على العلم ينشدونه فى مظانه ، ووجهوا عزائمهم على الفكر الأصيل . القائم على توجيهات الاسلام ، فلم يعرفوا العلمانية ولا أهوائها . ولا يصح أن يعرفوها .. ولم يعرفوا الأفكار المستوردة .

وإننا نجدهم اهتموا بشيء واحد ، وعرفوا شيئاً واحداً ، هو الإسلام ، والفكر الإسلامى .. فانتهوا إلى آيات الله التشريعية ، وآيات الله الكونية .. ولم يشغلهم عن ذلك ترف الحضارة ، ولم يثن عزائمهم بأساء الحياة . وأقاموا الحضارة الإسلامية التى تخطت مراحل النهوض فى تاريخ النهوض والأمم ..

واستطاعوا فى سرعة لم يعهد لها مثيل فى التاريخ أن ينتقلوا من أمة الأمية إلى أمة العلم والقيادة الفكرية وأن يصبحوا أساتذة العلم والعالم ، وقادة الفكر والرأى ، ورواد المعرفة والعلوم .

يدرسون العلوم للأجيال المعاصرة كأحسن ما يكون الدرس ، ويدونونها للأجيال المقبلة كأجمل ما يكون التأليف والتدوين .. وينشرونها فى شعوب كانت تائهة فى بيداء الجهل . . وبحثوا ، ودرسوا ، وأضافوا ، وجددوا ، وابتكروا ، فكان ذلك النتاج الحضارى الأصيل ، وقد حققوا ذلك على الرغم من الأحداث العاتية التى حملوا أعباءها والحروب الطاحنة التى خاضوا غمارها .

لأن الأحداث والخطوب ، وإن بلغت ما بلغت ، لا تستطيع أن تقف فى طريق العقائد التى انطوت عليها القلوب ، ولا أن تمنع العزائم القوية من الوصول إلى أغراضها وأهدافها ، ولعل القارىء يعرف أنه لأول مرة تاريخ الإنسانية ترى الدنيا هذه الخطوة الجبارة .

وذلك أن التاريخ الفكرى فى الأمم المختلفة ، كان يسلك سبيلا واحدة ، ويتدرج درجات معينة . حتى لقد جد الباحثون فى العصر الحديث فى استخراج قوانين طبيعية لسير العقل البشرى فى الأمم . وذكروا أن الأطوار التى تمر بها الأمم خمسة :

أولا : عصر سرعة التصديق واعتناق الخرافات والأوهام .

ثانياً : عصر الشك ، والحيرة ، والتحرى .

ثالثاً : عصر العقيدة والإيمان .

رابعاً : عصر العقل والفكر والحضارة .

خامساً : عصر الهرم والشيخوخة .

وإذا أراد أحد من الدرسين أن يطبق هـــذه القوانين التى استنبطها العلماء المتتبعون لحركة تطور الحضارات . إذا أراد أن يطبقها على الفكر الإسلامى . وجد ذلك غير ممكن ، لأن الفكر مستمد من تعاليم القرآن الكريم ، وسنة النبى الأمين . وما كان مستمدا من الإسلام كان أقوى من الأطوار التى جاء بها الباحثون .

تقول الكاتبة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكه :

« إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء من العدم ، من أعجب النهضات الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى ، فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة فى نوعها وأن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها » .

والفكر الإسلامى الأصيل يقوم على الثقافة القرآنية وهدى رسول الله محمد ﷺ . ولهذا كان الفكر الاسلامى لا يقبل الزيف . ولا الخلط بينه وبين غيره من الأفكار . . كما لا يقبل أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه .

والفكر الإسلامى ، غنى كل الغنى . . كامل متكامل ، يفى بحاجات الإنسانية ، ولكن هـــذا الفكر الأصيل فى حاجة إلى رجال مؤمنين ، لا يتأثرون بالسراب الخادع ، ولا ينخدعون بمعروضات الأمم ، التى تتفنن فى عرض أفكارها . . وبعد هـذا كله . نحن فى حاجة إلى رجال يحسنون

عرض الفكر الإسلامي حتى لا يتأثر الناس بالذوبان والانسلاخ . . إن فكر الأمة ، يعانى أزمة نفسية حادة كما يعانى إضطرابا وذلك نتيجة لارتماء الكثير فى أحضان الاشتراكية والثورية واليسار واليمين ، وغيرها من الأفكار التى دبجها سماسرة الالحاد ، والتخريب الشيوعى. وباتت المجتمعات الإسلامية تشهد تقلبات وانقلابات ، بين عشية وضحاها .

فهذه ديمقراطية ، ثم اشتراكية ثم شعبية .. ثم . . ثم .. اضطراب وقلق وتصفية للفكر الإسلامى ، بل الأدهى من هذا ، رأينا ، وشاهدنا ، وسمعنا عن رجال الفكر الإسلامى يساقون إلى أعود المشانق لتقطع منها الرؤس المفكرة ، وتحرق كتبهم ومؤلفاتهم ، لأن بها فكرا إسلاميا . . وبعض الجامعات فى البلاد الإسلامية ، تعمل على تصفية الفكر الإسلامى وقطع جذوره .

وما على الغيورين من أبناء الأمة إلا أن يضاعفوا الجهود ويبذلوا كل نفيس فى تطهير الفكر الإسلامى . ولا شك أن المسلمين فى يقظة فكرية واعية ولكنها تحتاج إلى رعاية .

الثقافة الإسلامية

أصل مادة التثقيف فى اللغة العربية تفيد التشذيب والتهذيب والتقويم والحذق والفطانة .

والمعاجم اللغوية تشير إلى أنها : المعارف والعلوم والفنون . وأنها تشمل كل ما يتصل بالروح والفكر والعقل والذوق والمشاعر . . وهى حصيلة الحياة الإنسانية فى مجالات الحياة كلها . . الحياة الروحية والفكرية واللغوية والأدبية والفنية . ولها صورها التى تتعدد وتتلاقى بين الشعوب والجماعات ، والتى يتصل بعضها بتراث الإنسانية كلها ، ويتصل بعضها الآخر بحياة جماعات بذاتها دون سواها .

والثقافة الإسلامية تستمد كل خصائصها ومقوماتها من القرآن الكريم ، وعلى القرآن تعتمد فى صمودها أمام تحديات كل عصر . وعلى القرآن تعتمد فى إنطلاقها وتفاعلها وعطائها . والثقافة الاسلامية . ثقافة إنسانية وعالمية ، تتميز بالشمول والتوازن والايجابية والفاعلية . وقد انطوت على طاقة روحية ، جعلت منها قوة فاعلة بل إن فاعليتها فى هذه الناحية ، شملت حياة الأفراد وحياة الجماعات من جميع الجوانب .

والشيء المهم فى هذه القوة الفاعلة ، إنها كانت إصلاحا جذريا يمس الأوضاع فى حياة الناس .

يضاف إلى ذلك أن الثقافة الإسلامية تمتد على مساحة الدنيا والآخرة . وهذا الامتداد الزمانى والمكانى الموغل فى العمق جعل الثقافة الإسلامية تختلف عن ثقافات بعضها يتوغل فى ماديات الحياة ، ثم يضفى عليها مسحة

من العبادة والفلسفة وبعضها الآخر يسلك طريق الروحية التجريدية .

أما الثقافة الإسلامية فقد جمعت بين الروح والمادة ، ولهذا لائمت حياة الناس وصارت أكثر التصاقا بالحياة فى مفهومها الحقيق ، وصورتها الواقعة . . وأصبحت أيضاً على إتصال دائم بالبناء الحضارى فى كل الشئون . .

ولما كان الاسلام دين قيم ، وضوابط سلوكية ، مادية ومعنوية كانت الثقافة الإسلامية موجهه ومربية ، تتصل بحياة الأفراد ، وحياة الجماعات .

ومن أبرز القيم التى استندت إليها الثقافة الإسلامية فكرة القيمة الذاتية للإنسان .. واستنادها إلى فكرة المسئولية الفردية ، والتكليف، ثم فكرة الاخاء ، التى تجعل الإنسان المسلم ينتمى إلى جماعة المسلمين ، ويحس بأنه عضو من أعضاء الجماعة المسلمة . . فهو جزء من كل يكمله ويكتمل به ، به ، ويعطيه ويأخذ منه ، ويحميه ويحتمى به .

وليس فى الثقافة الإسلامية إنفصال بين مسئولية الفرد نحو المجتمع ، ومسئولية المجتمع نحو الفرد . لأن هاتين المسئوليتين هما أوليا وسائل الاصلاح العام فى الإسلام .

ومن هذا المنطلق كانت الثقافة الإسلامية ، لا تعترف بالقهرية التى يدمج بها الفرد فى المجتمع قسرا ورغما عنه كما فى الشيوعية ، لأن الشيوعية من الوجهتين العملية والنظرية تستغنى عن الفرد أن لم يخدم غرض الدولة أو ان لم يتبع طريقة الحزب دون نقاش .

ومن وراء كل ذلك تمتاز الثقافة الاسلامية بأن كل مقوماتها الجوهرية تنبع من وحى رسالة الإسلام . . ورسالة الاسلام هى التى

تمدها بالقوة والعطاء ، وتوجهها إلى الموازنة بين مطالب الروح ومطالب البدن . وهى التى تبعدها عن الزهد المعطل للحركة والعمل .

فهى إذن تختلف عن غيرها من الثقافات ، حيث تأخذ فى الاعتبار تهذيب الجنس البشرى كله ، والعمل والوصول به إلى الرقى والفلاح . . يقول العالم الإنجليزى مارمادوك بيكثهول ، فى حديث عن الثقافة الإسلامية: « وأنا لا أعنى بالثقافة الإسلامية تلك الثقافة التى بلغها فى أى وقت قوم يقرون بالإسلام مهما كانت مصادر هذه الثقافة بل أعنى بها ذلك الضرب من الثقافة التى يأمر بها الدين . الذى جعل من التقدم الإنسانى غايته الواضحة العلنية .

إن كل من درس القرآن الكريم لا يستطيع أن يعد جميع من يسيرون على هديه ويطيعون ما جاء فيه بالنجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة ، وأنه لا يهدف إلى شىء أدنى من فلاح الإنسانية بأسرها ، وأن هذا النجاح إنما يتحقق عن طريق تهذيب مواهب الإنسان وكفاءاته » .

« إن الثقافة الإسلامية تختلف عن غيرها من الثقافات فى أنه لا يمكن أن تكون إطلاقا هدف الفرد المثقف وغايته . لأن هدفها — كما هو محدد بوضوح — ليس تهذيب الفرد أو الجماعة بل الجنس البشرى بأكمله ، وما من كمية من المؤلفات الأدبية أو الفنية ، فى أيما بلد يمكن أن تعتبر المبرر لإسلاميته طالما بقيت فيه ذرة من الإثم أو الظلم أو التعصب ، وما من انتصارات حربية أو سلبية بالغة ما بلغت من الروعة يمكن أن تذكر على أنها من حصاد الإسلام ، ذلك أن للإسلام غايات أوسع ، ونظرات أجل وأعظم ، وهو لا يهدف إلى ما هو أدنى من الإخوة الإنسانية ، ومع ذلك فإن الاسلام كدين يشجع الإنسان على بذل جهده فى سبيل تحسين ذاته وترقية الإنسانية عامة بأكثر مما يشجعه على ذلك أى دين آخر ، وهو منذ

أن أصبح دولة فى العالم ، أعطى من النتائج الثقافية ما يمكن مقارنته بالنتائج التى أعطتها سائر الأديان والحضارات والفلسفات مجتمعة »(١) .

ويقول العالم الإنجليزى يورك : « القرآن الكريم دستور يضبط سلوك المسلمين الذين يجب أن تكون جميع أفعالهم بمقتضى تعاليم القرآن الكريم . . أما كون المسلمين يعتبرون أن قوانين القرآن ثابتة ومعصومة عن الخطأ ، فيتضح من الحقيقة القائلة بأنه بالرغم من انقضاء ثلاثة عشر (أربعة عشر) قرناً على نزول القرآن الكريم ، فإنه لم يتعرض لأقل تغيير أو تبديل . وبأن كل كلمة من كلماته ، وكل حركة من حركاته قد بقيت كما خرجت من بين شفتى رسول الله ، وسيبقى هكذا دون أى تبديل أو تحريف . القرآن الكريم خالص من التدخل الإنسانى ، وهذه حقيقة لا يمكن أن تقال لا كليا ولا جزئياً عن سائر الكتب المقدسة للأديان الأخرى » .

« وهذا الشعور بالمعصومية من الخطأ وبالخلود الذى يوصى به القرآن الكريم ، يزيد من قوة القوانين الإسلامية ، وينمى الخلق الإنسانى .. بأن يجعل كل مسلم يدرك مسئوليته الخاصة ، وهذا الوعى الخلقى يخلق شعورا بالبر والتقوى يعتبره الإسلام أسمى ضروب الفضيلة .

والإسلام يفرض على كل مسلم أن لا يفعل إلا الشىء الصحيح مهما كان كريها وعسيرا ، كما يعتبر الصدق فى التفكير والعمل الوسيلة اللازمة للخلاص والنجاة .

وهذا الشعور بالواجب والأمانة يخلق تأثيرا سليما فى صياغة شخصياتنا وأخلاقنا .

---

(١) الثقافة الإسلامية من بعض زواياها ص٢١ ، ٢٢ بتصرف . طبع كراتشى . مجموعة . بحوث .

والصبر والشجاعة والإيمان الذى لا يتزعزع بالخالق يجعل من المسلم نموذجا سليما للرجولة .

والإسلام دين روحى ذلك بأنه يناشد دائما ويخاطب مشاعر الإنسان السامية . ويخلق فيه شعوراً بالتقدير والاحترام للأشياء الطيبة فى الحياة . وهو يطلب إليه — كما يفعل القرآن الكريم دائماً — أن يقارن زوال الأشياء وفراغها فى هذا العالم ، بالطبيعة الخالدة للتقوى والاستقامة والخلق . . وإن التسامح إزاء الغير يخلق فى المسلم شعورا بالود والصداقة الذى من دونه لا يطمع أى امرىء فى أن يدخل الجنة . ولقد أثبت المسلم بوصفه مواطنا فى هذا العالم أنه يملك الرقة والصداقة إلى حد مذهل . هذه الصفة التى جعلته موضع الإعزاز فى كل مكان ساقه القدر إليه »(١) .

ويقول الأستاذ ليوبولدفايس الذى أسلم وتسمى باسم محمد أسد : « يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات الإنسانية ، وجميع المدنيات ، أجسام عضوية تشبه الكائنات الحية . . أنها تمر فى جميع أدوار الحياة العضوية التى يجب أن تمر بها . أنها تولد ، ثم تشب وتنضج ثم يدركها البلى فى آخر الأمر . . فالثقافات كالنبات الذى يذوى ثم يستحيل ترابا . تموت فى أواخر أيامها ، وتفسح المجال لثقافات أخرى ولدت حديثاً . . أهذه إذن حال الإسلام ؟ ربما ظهرت كذلك عند إلقاء أول نظرة سطحية . . مما لاشك فيه أن الثقافات الإسلامية شهدت نهضة مجيدة ، وعهدا من الازدهار ؛ وكان لها من القوة مايلهم الرجال جلائل الأعمال ، وأنواع التضحية ولقد غيرت معالم الشعوب ، وخلقت دولا جديدة . ثم سكنت وركدت ، وأصبحت كلمة جوفاء .

إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدنية من المدنيات الأخرى ، وليس

---

(١) الثقافات الإسلامية من بعض زوياها . ص ٦٩

نتاجا بسيطا لآراء البشر وجهودهم . بل هو شرع سنه الله لتعمل به الشعوب فى كل مكان وزمان . فإن الموقف يتبدل تماما . . وإذا كانت الثقافة الإسلامية — فى اعتقادنا — نتيجة لاتباعنا شرعا منزلا . فإننا حينئذ لا نستطيع أبدا أن نقول : إنها كسائر الثقافات خاضعة لمرور الزمن ومقيدة بقوانين الحياة العضوية . . ثمّ إن ما يظهر انحلالا فى الإسلام ليس إلا موتا وخلاء يحلان فى قلوبنا التى بلغ من خمولها وكسلها أنها لا تستمع إلى الصوت الأزلى . . ثم ليس علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية — مع نموها الحاضر — قد استطاعت أن تشب عن الإسلام . . أنها لم تستطع أن تبنى فكرة الإخاء الإنسانى على أساس عملى ، كما استطاع الإسلام أن يفعل حينما أتى بفكرة القومية العليا : « الأمة » . أنها لم تستطع أن تشيد صرحا اجتماعيا يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهله فعلا على مثال ما تم فى النظام الاجتماعى الإسلامى . . أنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ، ولا أن تزيد فى شعوره بالأمن ، ولا فى رجائه الروحى وسعادته .

ففى جميع هذه الأمور نرى الجنس البشرى فى كل ما وصل إليه مقصرا كثيرا عن المنهج الإسلامى .. فأين ما يبرر القول إذن بأن الإسلام قد ذهبت أيامه ؟ .

أذلك لأن أسسه دينية خالصة . والاتجاه الدينى زى غير شائع اليوم ؟

ولكن إذا رأينا نظاماً بنى على الدين ، قد استطاع أن يقدم منهاجاً عمليا للحياة أتم وامتن وأصلح للمزاج النفسانى فى الإنسان ، من كل شىء آخر يمكن العقل البشرى أن يأتى به عن طريق الإصلاح والاقتراح . . أفلا يكون هذا حجة بالغة فى ميدان الاستشراق الدينى .

لقد تأيد الإسلام — ولدينا جميع الأدلة على ذلك — بما وصل إليه

الإنسان من أنواع الإنتاج الإنسانى ، لأن الإسلام كشف عنها ، وأشار إليها على أنها مستحبة قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل .

ولقد تأيد أيضاً على السواء بما وقع فى أثناء التطور الإنسانى من قصور وأخطاء وعثرات . لأنه كان قد رفع الصوت عاليا واضحا بالتحذير منها . من قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء . . وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الدينى نجد من وجهة نظر عقلية محضة كل تشويق إلى أن نتبع الهدى الإسلامى ، بصورة عملية ، وبثقة تامة .

نحن لا نحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام — كما يظن بعض المسلمين — لأن الإسلام كامل بنفسه من قبل . أما الذى نحتاج إليه فعلا فهو إصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا ، وقصر نظرنا ، وبكلمة واحدة .

أن الإسلام — كمؤسسة روحية واجتماعية — غنى عن كل تحسن ، وإن كل تغيير فى مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته وعلى تنظيمه الاجتماعى، بافتئات من ثقافة أجنبية — ولو بإشراك ضئيل — سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد ، وسترجع الخسارة حتما علينا نحن(١) :

فالثقافة الإسلامية . ثقافة حية ، تقوم على شمول العقيدة الإسلامية فى ظواهرها الفردية والاجتماعية . . وشمول العقيدة فى الإسلام ميزة خاصة للثقافة ، أوحت إلى المثقف المسلم بالاستراحة من خصام العقائد والمذاهب الفكرية البشرية . . وقد واجهت الثقافة الإسلامية فى الماضى تحديات خطيرة وصمدت لها ، واستطاعت فى قوة أن تثبت لها . وتقضى عليها نظرا لتمسك المسلمين بثقافتهم .. ويمكن إجمال هذه التحديات فى حملات الزندقة ،

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق . تأليف محمد أسد ترجمة عمر فروخ . ص ١٠٩ ، ١١٠ بتصرف طبع بيروت .

والإلحاد ، والتشكيك فى العقيدة ، والغزو الفكرى اليونانى ، والذى أعجب به الكثير من المسلمين .

ولازالت الثقافة الإسلامية تواجه تحديات خطيرة ، وتكالبا مسعورا ، وغزوا فكريا شرسا .

فالحضارة الغربية بشتى مؤسساتها ، تعمل على خلق أدوات الضرب لأى بادرة ثقافية إسلامية . . وعلى بذور الشك فى كل اتجاه « وقد كان الخطر على الثقافة من الغزو الفكرى كامناً أولا فى طبيعة الثقافة الغربية واختلافها فى معظم مبادئها عن الثقافة الإسلامية ويكمن الخطر ثانيا فى تبنى الحضارة الغربية للمؤسسات التعليمية والثقافية التى تبث ثقافتها ، وتعمل فى الوقت نفسه على إظهار الإسلام بما هو ليس على الحقيقة ، وطمس معالمه الصحيحة ، وتشويه مبادئه المثالية »(١) .

ويقول المستشرق البريطانى جب فى كتابه (أين يتجـــه الإسلام) : والواقع إننا إذا أردنا أن نعرف المقياس الحقيقى للنفوذ الغربى ، وتغلغل الثقافة الغربية فى الإسلام كان علينا أن ننظر إلى ماوراء المظاهر السطحية .. علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التى ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية بعد أن تهضم وتصبح جزءا حقيقيا من كيان هذه الدول الإسلامية .فتتخذ شكلا يلائم ظروفها .. والسبيل الحقيقى للحكم على مدى التأثير هو أن نتبين إلى أى مدى يجرى التعليم على الأسلوب الغربى وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير الغربى . . وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً ، حتى انحصرت فى طقوس محدودة ، وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً من غير وعى وانتباه .

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية . للدكتور عبد الكريم عثمان .

ويقول فى موضع آخر من الكتاب : « إن العالم الإسلامى سيصبح خلال فترة قصيرة علمانيا فى كل مظاهر حياته مالم يطرأ على الأمور عوامل ليست فى الحسبان فتغير اتجاه التيار » . . انتهى كلام المستشرق البريطانى جب ، والذى يبين المحاولات الخطيرة التى رسمت خطوطها لإبعاد الثقافة الإسلامية عن الحياة ، ولا شك أن بعض المجتمعات الإسلامية ، وفى غيبة ثقافة الإسلام ارتمت عن جهل فى جحيم المذاهب الهدامة وما تولد عنها من مسميات .

وعودة الأمة الإسلامية إلى الثقافة التى جاء بها القرآن ضرورة تقتضيها الحياة الصحيحة ، ولا حياة المسلمين بدون ثقافة الإسلام .

وثبة الإسلام الحضارية

لم يخلق الله ، سبحانه وتعالى ، الإنسان ، فى هذا الكون . ليعبث . أو يلهو ، أو يلعب . . أو ليطغى بقوته وجبروته ، أو يعيش فى احضان الجهل والاتكالية .

قال تعالى : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لاترجعون » . وقال تعالى : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » .

إنما خلق الله سبحانه وتعالى ، الإنسان ، وركب فيه ماركب ، من قوى الإدراك والعمل ، لحكم سامية . . منها : ليكون خليفة فى الأرض ، يعمل على اصلاحها ، واتساع عمرانها وإظهار أسرار خالق الكون فيها ، وتدعيم أواصر الخير ، وإقرار السعادة ، فى جميع أرجائها .

وقد أرشد إلى هذه الحكمة كثير من آيات القرآن .. منها قوله تعالى ، فى سورة البقرة ، وهو يحدث عن مبدأ خلق الإنسان : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال : أنى أعلم مالا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين قالوا : سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا أنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم انبئهم باسمائهم . فلما انبأهم باسمائهم قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون » .

فهذه الآيات توحى بأن العلم أساس الحياة ، وسر النجاح . فالخلافة

فى الأرض والسيطرة عليها ، وتسخير ما فيها ، واستغلال خيراتها ، وثمراتها وطيباتها أساس ذلك كله العلم لا غيره .

وإذا كانت هذه هى مهمة الانسان فى الحياة ، وهى حكمة خلقه وحكمة الانعام عليه ، بقوى العلم والعمل ، وحكمة تسخير الكون وإخضاعه له فى التفكير والتصريف . فلا سبيل إلى قيام الانسان بهذه المهمة ، وتحقيق تلك الحكم إلا بالعلم والمعرفة والعمل .

ولم يكتف الاسلام بهذا . . بل فتح مجال العلم ، للعقل الانسانى وتعدى به أسوار الطبيعة وتغلغل به فى أسرار الحياة : قال تعالى « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فانبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا . وفاكهة وابا متاعاً لكم ولأنعامكم » .

وقال تعالى : « فلينظر الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » . . وقال تعالى : وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » .

هذه الآيات وما جرى مجراها ، قد فتحت للعقل الانسانى ، آفاق الكون وبينت له طريق التأمل والمشاهدة والتفكير ، فى ملكوت السموات والأرض ، لاستنباط الحقائق ، وما يفيد المجتمع . وتلك دعوة صريحة إلى العلم ، حظيت بها الإنسانية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، ودعوة صريحة صادقة إلى اتباع الأسلوب العلمى .

والإسلام قد وثب بالمسلمين وثبة هائلة ، وهذه الوثبة الهائلة كانت على أثر اشعاع القرآن الكريم ، فى جنبات الدنيا والانسانية فأنارهما بعد ظلمة ، وهدى الانسانية بعد حيرة ، ونظمها بعد اضطراب ، وفتق

أذهان ابنائها بعد ارتتاق وأزال الأصفاد والقيود التى كانت تقف حجر عثرة أمام الفكر .

وكان من ذلك أن نبه على وجوب النظر فى الكون العام ، وفى النفس الإنسانية وفى الأسباب والمسببات .

فكان بهذا مصباحا أضاء الدنيا ، وأنار أفق الإنسانية وأشرق بالمعرفة الصحيحة .

والباحث المنصف يرى أن الإسلام فى وثبته : قد وضع أسس المعرفة التى تهدى الانسان إلى الخير .

والمعرفة فى الاسلام ، لا تقوم على نظرية تحتاج إلى دراسة وتأمل وإنما على أساس التعادل بين الكم والكيف ، وبين المادة والروح ، وبين الغاية والسبب وبين الدنيا والآخرة . فلا افراط ولا تفريط ، لقد ربط الاسلام بين الحواس المرهفة وبين العقل الباحث المنظم أو الوجدان النقى ، وكل ما جاء فى القرآن فى الحث على التفكير ، دليل على مكانة العقل ، والعلم ، والمعرفة فى نظر الاسلام ، إذ العقل آلة التفكير ، والعلم ثمرة التفكير . فكل ما ورد فى القرآن ، حثا على التفكير ، هو إعلان عن فضل العقل ، وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويته، وهو فى الوقت ذاته تسجيل لفضل العلم . حتى يتمكن الانسان من الحقائق ، وتزول عنه غشاوة الجهل ، ويتحرر من رق الأوهام ، والخرافات ، التى لا صلة لها بواقع الحياة .

وبهذا كان الاسلام دين الفكر ، والعقل ، والعلم . وقد ارتفع القرآن بالعقل وقدره حق التقدير ، وجعله ميزة الانسان . قال تعالى: «افلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » .

وبناء على التوجيهات القرآنية ، للناس بالنظر والدراسة . انطلق المسلمون يدرسون ويبحثون، ويقارنون ، ويغربلون ، ويقعدون القواعد ، ويؤصلون الأصول .

ولقد اشتملت توجهات القرآن العقلية ، على أصول ومبادىء عامة صلحت لأن تكون منهجاً فكريا سليما ، حدد به المسلمون موقفهم من مشاكل الكون والحياة .

واستطاعت هذه التوجيهات أن تمكن المسلمين ، من الاستفادة من تلك الدرة الالهية ، التى منحها الله للإنسان ، وهى العقل . فنمته وجعلته يمارس الوظيفة الأساسية التى خلق من أجلها ، حتى كانت للمسلمين حضارة وعلوم ومخترعات . حضارة عالمية لن ينسى التاريخ دورها فى تحويل مجرى الإنسانية ولن تنسى الإنسانية دور المسلمين فى بناء الحضارة ، بأصالة وعمق .

كانت هناك تشريعات ، وفلسفة ، وقوانين ، وطب ، وفلك ، وأدب واجتماع ورياضيات ، وتاريخ ، وجغرفيا ، فنون جميلة ، وأداب للسلوك والإجتماع .

وكان لكل هذه العلوم والفلسفات ، أساتذة عباقرة ، كأئمة الحديث ، ورجال الفقه الذين ضبطوا أساليب النقد ، وقعدوا قواعد التشريع .

وفوق هذا وذاك . . فقد كان المسلمون هم واضعو طريق البحث العلمى التجريبى الذى كان أساسا للحضارة الأوربية الحديثة ، ويكفى فى هذا نستشهد باعتراف العلامة (بريفولت) : « ان الأوربيين درسوا عن العرب طريق البحث العلمى التجريبى وأنه لم يسبقهم إليها باحث أو مفكر » .

تلقى المسلمون هذه الينابيع من مصادرها الأصلية ، واستقرت دعائمها

فى نفوسهم ، فكانت الرائد الأمين للعقول والأفهام ، والغذاء الروحى للغرائز والمواهب وهذه الينابيع طبعت الناس على استقلال الإرادة ، وحرية الفكر . كما كرهت إليهم التقليد والتبعية العمياء ، ووجهت العقول للبحث والإنتاج .. وفتحت لهم ميادين العلوم والفنون . فأقبلوا عليها سراعا . ودخلوها من كل باب ، وبهذه النهضة العلمية الجبارة استطاع المسلمون فى سرعة لم يعرف التاريخ لها مثيلا . أن ينتقلوا إلى القيادة الفكرية العالمية ، ويصبحوا أساتذة الدنيا . وعباقرة العلوم . . .

وكان وأصبح هناك قادة وحكام ، ومدن وعواصم ومعاهد وجامعات ودول وممالك ، لم يشهد التاريخ لها مثيلا .

كل هذا كان بفعل الاتجاهات العقلية التى غرسها الإسلام ، والتى أدت إلى تنمية القوى العقلية الكامنة فى الإنسان ، والتى جعلت من المسلمين أساتذة للعلوم ، يدرسونها للأجيال المعاصرة ، كأحسن ما يكون الدرس والتعليم ويدونونها للاجيال المقبلة ، كأحسن ما يكون التأليف والتدوين وينشرونها فى شعوب ، كانت تائهة فى عماء الجهل وظلمته .

فقد كانت بعوث الأمم ، تفد على العواصم الإسلامية من كل ناحية فيأخذون عن علمائها ماشاءوا من أفانين العلوم وألوان المعرفة ثم يعودون إلى بلادهم حاملين إليها مشاعل هذه العلوم التى نفخت فيهم روح الحياة وفتحت لهم طريق الانتفاع باصلين عظمين من أصول الإصلاح الإسلامى وهما : حرية الفكر .. واستقلال الإدارة .. فلم تنهض العقول للبحث ، ولم تتحرك النفوس للعمل : الا بعد أن عرفت أن لها حقا فى طلب الحقائق.

ولقد تلمست أوروبا حضارة المسلمين العلمية . فاستقت من روافدها المعرفة والفلك ، والجبر ، والهندسة ، والكيمياء ، والطب ، والفلسفة ، وعلوم النبات ، والحيوان ، وسائر أنواع الفنون الحضارية .

وبنى رجال أوربا ، بما تعلموه فى معاهد المسلمين بالإندلس ، وبما نقلوه من علوم .. أسس النهضة الحديثة ، التى ظهر نجمها فى القرن الثامن عشر وأزدهر فى القرن التاسع عشر وتألق فى القرن العشرين .

والإسلام بدعوته إلى العلوم . هو الذى خرج رجال الحضارة ، وجهابذة العلم أمثال : ابن الهيثم ، والكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، والبيرونى ، والفرغانى والطوسى ، والبغدادى ، والدينورى ، والرازى ، والقزوينى ، والإنطاكى والزاهراوى والخوارزمى ، والصوفى ، وجابر ، والجاحظ ، وابن البيطار ، وابن النفيس ، وابن حيان وابن حمزة ، والادريسى والمسعودى ، وابن بطوطة ، وغيرهم من عمالقة التخصص والبحث .

وهذا ابن الهيثم يبحث فى السهول والإودية : ويجول فيها طولا وعرضا حتى يضع قواعد علم الضوء .

وابن الدجيلى يسهر على قمم الجبال العالية ، يحدق فى الكواكب والنجوم ليحدد أفلاكها ، ويعرف أبعادها .

وابن النفيس يجرى التجارب والاختبارات ، حتى يثبت أن الدم ليس سائلا مستقرا فى الأوردة والشرايين المبثوثة فى الكائن الحى . بل هو سائل متحرك يدور فى جميع اجزاء الجسم ، وذلك قبل أن يكشف « هارفى » الدورة الدموية بثلاثة قرون .

وابن مسكويه يسبق فلاسفة أوربا . وعلمائها بثمانية قرون فى علوم الاخلاق والفلسفة والتهذيب والبيولوجيا .

وجابر بن حيان يحلل عناصر الطبيعة ، وتفاعل المواد المختلطة ، حتى يضع أصول علم الكيمياء .

وابن يونس يسبق العلماء فى اختراع بندول الساعة « الرقاص » .

هذا كله فى الوقت الذى كانت فيه أوربا ، تعيش فى ظلمات الجهل ، والفوضوية والأمية والهمجية والتأخر ، ولم ينقذ أوربا من ورطتها التى كانت واقعة فيها الا الحضارة المسلمين ومازالت اسماء العلوم والمصطلحات التى أعطاها هؤلاء العلماء المسلمين لغرائب المخترعات ، مازالت حية نابضة ، فى اللغات رغم ما نالها من تحريف وتغيير .

ولقد سجل التاريخ آيات هذه الحضارة الإسلامية ، وشهد بها المنصفون من فلاسفة العالم ومؤرخيه ، الذين لا يبغون من بحوثهم ودراساتهم ، إلا مرضاة العلم فى ذاته . تقول الكاتبة الألمانية الدكتورة « سيجريد هونكه » : أن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء من العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى . فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة ، وحيدة فى نوعها ، وان الانسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتكوينها » .

وقالت أيضاً : « وإن أوربا تدين للعرب ، والحضارة العربية ، وأن الدين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات ، للعرب كبير جداً » .

وقال العلامة « دريبر » المدرس فى جامعة (هارفارد) بامريكا . فى كتابة « المنازعه بين العلم والدين » : « أن نتائج هذه الحركة العلمية ، تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصناعات فى عصرهم ، فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد وتربية الحيوانات ، وسن النظم الزراعية المحكمة ، وادخال زراعة الأرز وقصب السكر والبن .

وقد انتشرت معاملهم ومصنوعاتهم لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن . وكانوا يذيبون المعادن ، ويجودون فى عملها على ماحسنوه وهذبوه ، من سبكها وصنعها ، وأننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ، ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر . وان جامعات

المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا اليها من بلادهم لطلب العلم وكان ملوك أوربا وأمراؤها ، يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها » .

ان هذه الأقوال التى جاءت على لسان علماء افذاذ لمرضاة العلم فى ذاته تشهد صراحة وضمنا ، وجملة وتفصيلا ، لحضارة المسلمين ، ومدى فاعلية هذه الحضارة الإسلامية الإنسانية .

وإن الأمة الإسلامية ، يمكن أن تعود إلى بناء حضارتها المتميزة ، لأن المجتمع الإسلامى يعيش اليوم فى صحوة فكرية ، ويقظة صحية . وقد حباه الله باعظم النعم وأعطاه من وسائل الحياة ، مايهيء له القدرة على المساهمة فى خدمة الإنسانية إذ يتربع على كنوز ثمينة ، ويربض على ثروات معدنية هائلة ، ويملك من حقول البترول أجداها نفعا ، واكثرها ثراء وسخاء ، وأقواها تدفقاً وعطاء ويتبوأ استراتيجية عامة ويشغل من خريطة الدنيا ، حيزا جغرافيا عظيما .

وتلك وغيرها أمور تجعل الأمة الإسلامية . قوة ايجابية ، مهيأة للاسهام فى أنقاذ الإنسانية من وهدة الضياع والفوضوية والجهل ، والالحاد ، المذاهب الهدامة .

ولقد وصف المستشرق السويدى « فرناو » العالم الإسلامى بأنه يمثل بموقعه فى قلب قارات ثلاث « قارة وسطى » ،

وهذا تعبير قد لايرضى عنه علماء الجغرافيا . ومع هذا فهو تعبير محمل بالمعانى الكبيرة . . .

يقول الدكتور جورج سارطون : « ان المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية إذا عادوا إلى فهم حقيقة الحياة فى الإسلام ، والعلوم التى حث الإسلام على الأخذ بها .

وقال الدكتور فيلب حتى : « ان الشرق الإسلامى هو اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية ، كما أنه فى فجر جديد فى حياته السياسية وهو دور جديد يمكن أن نسمية دور الإبداع والابتكار ، ضمن إطار الميراث الخالد ، من القيم الدينية والأدبية » .

والحقيقة التى لا يستساغ أنكارها ان تقدم المسلمين علميا وحضاريا رهين بعودتهم إلى الإسلام . وكفى . . .

المراجع والمصادر

١ — القرآن الكريم .
٢ — الامتاع والمؤانسة : لأبى حيان التوحيدى : ط لجنة التأليف .
٣ — أطوار الثقافة والفكر : على الجندى وآخرين : ط الأنجلو مصرية .
٤ — الإيمان وأثره فى بناء المجتمع : للأستاذ كامل همام : ط المجلس الأعلى .
٥ — الإسلام على مفترق الطرق : محمد أسد : ط جامعة القاهرة .
٦ — أثر المدنية الإسلامية فى الحضارة الغربية : للدكتور مختار القاضى : ط المجلس بالقاهرة .
٧ — أثر العرب فى الحضارة الأوربية : عباس محمود العقاد : ط دار المعارف .
٨ — الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها : للدكتور أحمد أحمد غلوش : دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت .
٩ — الإشارات والتنبيهات : لابن سينا . ط دار المعارف .
١٠ — القرآن والتفكير : للدكتور أحمد الحوفى : ط المجلس الأعلى .
١٢ — الدين والحضارة الإنسانية : للدكتور محمد البهى . ط دار الهلال .
١٢ — المسلمون بين الماضى والحاضر والمستقبل : وحيد الدين خان : ط المختار الإسلامى ـ القاهرة .
١٣ — التفكير فريضة إسلامية : عباس محمود العقاد : ط المؤتمر الإسلامى .
١٤ — الفلسفة القرآنية : عباس محمود العقاد : ط دار الهلال .
١٥ — الإنسان فى القرآن : عباس محمود العقاد : ط دار الهلال .
١٦ — الشيوعية والإنسانية : عباس محمود العقاد : ط دار الهلال .
١٧ — الإسلام يتحدى : وحيد الدين خان : دار البحوث العلمية ـ الكويت .
١٨ — استراتيجية العالم الإسلامى : مجموعة بحوث : وزارة الحج ـ مكة .
١٩ — الثقافة الإسلامية فى رعاية الشرق الأوسط : د . جورج سارطون .
٢٠ — الإسلام والشيوعية : الإدارة العامة للدعوة الإسلامية : وزارة الأوقاف

٢١ — تراث الإسلام : شاخت وبوزرت ، عالم المعرفة ـ الكويت .
٢٢ — الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة : مجموعة بحوث : مؤتمر برنستون بأمريكا .
٢٣ — الاتقان فى علوم القرآن : للحافظ جلال الدين السيوطى : ط الحلبى .
٢٤ — إحياء علوم الدين : للإمام الغزالى . ط كتاب الشعب ـ القاهرة .
٢٥ — إسلام بلا مذاهب : للدكتور مصطفى الشكعة : ط النهضة العربية ـ بيروت .
٢٦ — الإسلام والحضارة العربية : محمد كرد على : ط لجنة التأليف .
٢٧ — الإسلام دين العزة والمدنية : للإمام محمد عبده : ط دار الهلال .
٢٨ — الإسلام عقيدة وشريعة : للشيخ محمود شلتوت : ط الأزهر .
٢٩ — إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : لمصطفى صادق الرافعى ط المكتبة التجارية ـ القاهرة .
٣٠ — بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : للفيروزابادى : ط المجلس بالقاهرة .
٣١ — البيان والتبيين : لأبى عثمان عمرو بن الجاحظ : ط لجنة التأليف .
٣٢ — بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب : للألوسى البغدادى : المطبعة الرحمانية .
٣٣ — البحر المحيط : لابن حيان الأندلسى : مطبعة السعادة ـ القاهرة .
٣٤ — تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى : للدكتور حسن إبراهيم : ط النهضة العربية .
٣٥ — تاريخ بغداد للخطيب البغدادى : دار الكتاب العربى ـ بيروت .
٣٦ — تاريخ الحضارة الإسلامية : د. فاسيلى بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر : دار المعارف .
٣٧ — تاريخ الفلسفة الإسلامية : للدكتور دى بور ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ـ القاهرة .
٣٨ — تراث الإسلام : ألفرد جيوم ، ترجمة خطاب عطية ـ القاهرة .

٣٩ — التوعية الاجتماعية : للأستاذ أنور أحمد : ط الشعب ـ القاهرة .

٤٠ — الثقافة الإسلامية من بعض زواياها: مجموعة بحوث: كراتشى ١٩٦٤م.

٤١ — حاضر العالم الإسلامى : لشكيب أرسلان : ط بيروت .

٤٢ — حضارة العرب : جوستاف لوبون ، ترجمة زعيتر : ط الحلبى .

٤٣ — الحضارة الإسلامية: خودا بخشى، ترجمة الدكتور الخربوطلى: ط الحلبى

٤٤ — الحضارة الإسلامية : آدم ميتز ، ترجمة أبو ريدة : ط الحلبى .

٤٥ — الحضارة الإسلامية : جوستاف جروف بارم ، ترجمة عبد العزيز جلويد : ألف كتاب .

٤٦ — حقائق الآسلام : عباس محمود العقاد : ط دار الهلال .

٤٧ — الحياة الوجدانية : للدكتور محمد حسب الله : ط الحلبى .

٤٨ — دائرة المعارف الإسلامية: لمجموعة من المستشرقين ط كتاب الشعب.

٤٩ — دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدى ـ القاهرة .

٥٠ — دائرة المعارف الحديثة : أحمد عطية الله ـ القاهرة .

٥١ — دراسات فى حضارة الإسلام : هاملتون جب ، ترجمة الدكتور إحسان عباس ـ بيروت .

٥٢ — الدعوة الإسلامية دعوة عالمية : للأستاذ محمد الراوى: الدار القومية.

٥٣ — الدعوة إلى الآسلام : توماس أرنولد ، ترجمة حسن إبراهيم : النهضة المصرية .

٥٤ — دعوة الحق : مجلة مغربية تصدرها وزارة الأوقاف .

٥٥ — عاديات حب : المجلد الأول والثانى والثالث ـ حلب .

٥٦ — العلوم عند العرب : قدرى طوقان : الألف كتاب .

٥٧ — العلم والحضارة : الشيخ عبد الحفيظ حسين : ط المجلس .

٥٨ — العلم والمجتمع العربى : حمدى إبراهيم عيسى : ط المجلس .

٥٩ — العقد الفر بن عبد ربه : ط القاهرة .

٦٠ — العقيدة الإسلامية : بحث للشيخ أبو زهرة فى مجمع البحوث .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
	٣
علم والدين	٥
المعرفة بين الفلسفة والإسلام	١٢
الفكر والعقل	٣٠
الثقافة الإسلامية	٤٢
وثبة للإسلام والحضارية	٥١
المصادر	٦٠

المؤلف فى سطور :

أحمد عبد الرحيم السايح

— من مواليد عزبة السايح : القارة مركز أبو تشت محافظة قنا سنة ١٩٣٨ .
— حصل على الإجازة العالية « ليسانس » من كلية أصول الدين - قسم عقيدة وفلسفة - جامعة الأزهر سنة ١٩٦٥ م
— حصل على الشهادة العليا من كلية التربية - جامعة الأزهر سنة ١٩٦٦ م
— حصل على جائزة وشهادة تقدير فى العلوم الثقافية من وزارة التعليم العالى فى عيد العلم سنة ١٩٦٦م
— بالدراسات العليا قسم عقيدة وفلسفة كلية أصول الدين-جامعة الأزهر .
— يعمل محررا بالصحف العربية ويكتب فى كثير من المجلات العالمية .

كتب للمؤلف :

— من وحى السماء : صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٤هـ
— الهجرة انطلاقة وبناء : صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٩هـ
— فلسفة البراجماتزم : صدر عن وزارة الأوقاف بالمغرب ١٩٧٢م
— المعرفة فى الإسلام : طبع دار الطباعة المحمدية بالأزهر ١٣٩٩هـ

كتب تحت الطبع

— من وحى القوة فى الإسلام : بحوث ودراسات .
— الإسلام والإنسانية : بحوث ودراسات .
— المرأة فى الإسلام : بحوث ودراسات .
— الحضارة الإسلامية : دراسة موضوعية .
— كلمات وأفكار : خواطر هادفة .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٤٩٢٥ / ١٩٧٩ م